عودة الروح

"بعض الأرواح تعود مهما ماتت أجسادها"

كانت فاطمة ممددة على سرير مهترئ في المستشفى الإقليمي ما بين الحياة والموت. ضربات المشرط لا تحدث أي إحساس بالألم في يدها. كانت تنز دما والطبيب يخيط يدها. "غُرْزَة" هنا وأخرى هناك، دون شفقة ودون رحمة.

أنظر إلى وجهها الشاحب، فأفقد ذاك النور الذي يتصاعد منه بقوة في كل ابتسامة ترميني بها. أفقد صوتها العذب، دفأها الغريب، دقات قلبها. في حالة من السكون وفوضى الحواس، بل في لجة من القهر النفسي، أستشعر صوتها الملائكي يقول لي: "كن أنت، عش حياتك بعدي مثلما عشتها معي".

أمواج من العتاب واللوم تتلاطم بداخلي، وتأخذني بقوة لتقذف بي في ساحل معطوب ومهجور. أحاول أن أرسو، لكني أسيء تقدير المسافة. يبدو لي، دائما، المرسى قريبا، لكني أقع في البحر، ولا منقذ لي. فكيف يتشبث المرء بحلمه؟ وكيف للحلم أن ينقذه من و اقع مهيض؟ أن يتشبث غريق بغريق خير له أن يتشبث بحلمه في وطن يرفض الأحلام ويأباها. أصرخ ملء فمي، و أناجي، وأدعو، و أتضرع... لكني أتعذب وأغرق، وأحس ما أحسه فرعون: لقد آمنت بما آمن به المرهفون والعشاق.

وحده صوتها الملائكي تخطفني من فم الأمواج العاتية. استفقت من دوامتي مذعورا ملوما مدحورا. كاد الصداع يفلق رأسي نصفين: "هل تموت وتتركني حبيبي؟" هكذا تلفظت أولى كلماتها بعد أن استفاقت من غيبوبتها.

رست على خدي بلورات من الدموع مكورة. تعجبتْ، وقالت:

- وهل يبك الرجال حتى تبكي؟

- قلت: نعم يبكون.

- قالت: ومتى يبكون؟

- قلت: حين يقصفون، أو يصعقون، أو يرمون بسهم حب؛ يبكون زمن الفراق، وزمن الوصال.

استفاقت فاطمة من غيبوبتها آملة أن أعينها كي تندمل جراحها الظاهرية مع مرور الوقت. أما أنايا فلم تستفق من قلبي الذي كان مهددا بالتوقف في أي لحظة. كنت على شفا حفرة من الحرمان؛ إذ كنت عاجزا عن رد فاطمة إلى الحياة. كادت حياتي تنهار، وكانت جهنم تقول، وهي فاتحة فمها: "هل من مزيد؟".

أدركت للحظة أن الشيطان لو كان يعين الإنسان في الدنيا، لمنحني الأمل؛ أمل أن تبقى فاطمة إلى جانبي، فتستقدم ساعة، أو لطلب مني أن أكفر مقابل الرحمة، أو الخلاص الأبدي من ظلام الفراق ومرارة طعم يشبه الزقوم. الشيطان، إذن، يبيع الوهم ولا يعد بالأمل؛ لأننا نحن من نزرع الأمل ونربيه في قلوبنا ليترعرع شيئا فشيئا كلما اتسعت جراحنا وعظمت آلامنا.

إن الأمل حلمنا المشتهى، وشجرتنا التي نستظل بأغصانها وفروعنا، إن نحن أحسننا تشذيبها وتهذيبها، والعناية بها. الأمل قوة من لا قوة له، وذاكرة من لا ذاكرة له، وماضي من لا ماضي له، ولغة من لا يحسن النطق، وجنة الأرض التي تأوي المعدومين والبررة العجزة.

كان إلى جانب سرير فاطمة سرير آخر. أحسست للحظة أن يدا ثقيلة دفعتني من الخلف بعدما أحسست برجلي ثقيلتين ومتراخيتين.

اندفع جسدي على السرير، كأنما تقاذفتني أمواج هائجة شرسة، ثم وقعت على وجهي. ثم فقدت الوعي، فقدت الإحساس، وفقدت فاطمة الأمل؛ أمل نجاتي لبرهة، بعدما فقدني الطبيب.

لقد فقدت كل شيء من حولي. حواسي تغوص شيئا فشيئا في فوضى ودمار شامل. وحده صوت ملائكي، أحسبه لفاطمة قال لي: "تشبث بالأمل، لأنك أنت الأمل. أنت أمل نجاتي، فعش كي أعيش. كن كي أكون. أو دعنا نمضي معا؛ فلا داعي لحياة كورقة مشطب على إحدى صفحاتها. فكن صفحة، أكن صفحة؛ كي نكون ورقة واحدة".

تدفقت الروح مجددا في جسدي، واندفع جسدها الملائكي نحوي بجراحه الغائرة: "غرزة"، "غرزة"، جرحا، جرحا... وقنينة الأكسجين معلقة، وموصول بأنفها الصغير وفمها الشهد أنبوبها، ثم حضن جسدي المرتعش المتعرق البارد، الذي يشبه عصفورا صغيرا سقط في بركة ماء بارد، ثم خرج لتوه منها.. هكذا كنت ساعتها.

قبلة واحدة منها بجراحها كانت كافية كي تتدفق الروح وتعود من جديد بعدما سلمت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا.

وكانت هناك فراشة بكل ألوان الكون المعروفة لدى الفنانين، وألوان أخرى، تجيء وتروح، وتطوف برأسينا، محدثة رفرفة بجناحين منكسرين.

في تلك اللحظات الصماء القاسية والحاسمة في آن، كان علي أن أشفى قبل أن يرتد إلي طرفي. كان علي أن أتقوى بكل لغات الكون، كان علي أن أخرج روحا أخرى من داخلي، حتى أقوم من مقامي، حتى لا أرى فاطمة تعتصر دمعا ودما لأجلي.

في هذه اللحظات، عليك أن تكون أدق كاتب، وقارئ، ومؤول لما يحوم حولك من علامات: رمز، أو عقد، أو حال نصبة، أو كلام. هكذا قالها الجاحظ. تقرأ كل فصل بكل تفاصيله الصغيرة والرتيبة؛ حرفا فحرفا، ونجما فنجما، وفكرة ففكرة، وجرحا فجرحا، ونزفا فنزفا.. حتى تحب أحباءك حبا جما، وحتى تستوي الفكرة الصغيرة وتنبت سبع سنبلات خضر، في كل واحدة ألف فكرة ونجمة وجرح.

أحيانا تهجرنا الروح. لتبحث عن جثة تستحقها. لكنها لا تجد سوى جثث مسحوقة وممحوقة ومطحونة من قبل الزمن.

الوطن، أيضا، يطحن فينا كل روح طيبة وبريئة. يفقدنا الإنسانية ويمنحنا الخراب والدمار والأحزان والجراح. إن الأرواح الطيبة تأبى الجثث المعطوبة.

ما يزال جسدها المهترئ المدمي مسندا على جسدي، وأحس قلبها مشرعا بقوة ألف حصان أمام قلبي الذي يستقبل الحياة مرة ثانية. ببطء شديد تناجت قلوبنا. خاف قلبها أن يفقد قلبي ذاكرته، وينسى هوية قلبها كأن لم يغن بالأمس. لكنها تأكدت أن القلوب لا تموت ، وإن مات حاملوها. فالجثث آيلة للفناء بينما تظل القلوب حية؛ يزور بعضها بعضا، ويضم بعضها بعضا، ويتألم بعضها لتألم بعض. هذه هي حياة القلوب ومشيئتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها جميعا. وتزداد هذه المشيئة قوة، والصلة صلابة كلما كانت هذه القلوب بين ضلوع في صدور لجثث فقيرة؛ فقد قيل لي: إن قلوب الضعفاء والمسنين على هذه الأرض، وحدهما تواسي ألم بعضها. إن القلوب الرحيمة، إذن، توجد في أجثاث المسنين، والمعدمين، والفقراء، والمساكين، والأقنان.

والجسد الضعيف كثيرا ما يحمل قلبا رحيما. هكذا قال الملأ إذ رأوا أن الدين ما دخل فيه إلا الأراذل. فهل معناه أن المتدينين بؤساء؟

أعلم أن النهاية معلومة لدى الجميع؛ قبر منسي وسط صحراء قاحلة. وأن جرارا قد ينبش التابوت بعد أن يحرث الأرض. لكن اعلموا أننا قبور ميتة تسير، الآن، حتى إشعار آخر. فتذكروا يا أولي الألباب.

النهاية، إذن، معلومة. فلماذا يصر الناس على تجاهلها؟ ولماذا يصرون على توهم نهايات سعيدة؟ كل النهايات السعيدة في الروايات، والحكايات، والقصص...كاذبة. فلا توجد سوى نهاية واحدة؛ فناء الأجساد، وانتشار الدود فيها بعد أن ينتشر فيها العطب في الحياة.